

الأساطير الإغريقية

أ. زهير ناجي*

لدينا ما يعرف بإسم الخرافة ولدينا ما يعرف بإسم الأسطورة. والخرافة هي الشيء غير المعقول، أما الأسطورة فهي شيء أوسع وأكبر بكثير من الخرافة، وخاصة إذا كانت الأسطورة قد أصبحت جزءاً من الفن والأدب، جزءاً من التاريخ، جزءاً من الدين. والخيط الذي يجمع بين الخرافة والأسطورة هو شيء رمزي.

الخرافة

في القرن السادس قبل الميلاد ألف كاتب يوناني يدعى إيزوب قصصاً على لسان الحيوان، وطبعاً هذه خرافة ولذلك سميت بخرافات إيزوب، لأنه من المستحيل أن يتكلم الحيوان. صحيح أن إيزوب كان يتكلم على لسان الحيوان لكن كتاباته كان فيها رمز، ترمز إلى الإنسان، إلى مشاكل الناس والمجتمع، العلاقات بين الناس وبين الطبقات. الأمر نفسه تابعه العرب أيضاً، فكلنا يعرف كتاب كلبلة ودمنة، وهو كتاب هندي ترجمه ابن المقفع، هذا الكتاب أيضاً كان يتكلم على لسان الحيوان. والمؤلف الهندي لهذا الكتاب يدعى بيدبا، حيث ترجم هذا الكتاب إلى اللغات الأوروبية، وأراد ابن المقفع فيه أن ينقد الحكام والناس والجشع والطمع، ولكن المسكين دفع حياته ثمناً لهذا. العملية نفسها تابعها كاتب كبير يدعى لافونتين في فرنسا في القرن السابع عشر، إذ كتب قصصاً على لسان الحيوان. وهذه كلها خرافات ولكن دائماً فيها رمز، وكما يقال التلميح أقوى من التصريح، لهذا دفع ابن المقفع حياته ثمناً لكتاباته، لكن لافونتين لم يدفع حياته لأنه كان محمياً من رجال السلطة.

الأسطورة

إذا كان الحلم الذي نراه في منامنا هو شيء فردي، فإن الأسطورة هي حلم الشعوب، وما من شعب في العالم على الإطلاق إلا ولديه أساطيره، هذه الأساطير تتلون حسب البيئة التي نشأت بها. ما يميز الشعوب الأخرى خاصة بالقرن السابع عشر والثامن عشر أنهم جمعوا هذه الأساطير ودونوها، نحن حتى الآن لم ندون أساطيرنا، لماذا تدون الأساطير؟ تدون الأساطير لأهميتها في فهم حياة وأخلاق الشعوب، العلاقات بين الناس، الأحوال السياسية والاجتماعية، في بعض الأوقات نوع من التكفير عن الذنب، وفي بعض الأوقات الأمل، لأن الأسطورة كثيراً ما تصوغ آمال الأمة، تعبر عن آلامها وعن أحلامها بالمستقبل فكأنها حلم الشعوب، شعب مهزوم فيكتب أسطورة عن انتصار قام به، وهذا حدث في التاريخ.

تطور علم الأساطير

نشأت الأساطير الإغريقية واليونانية منذ القرن التاسع قبل الميلاد، ولم يكد يمر قرنان أو ثلاثة قرون حتى ازدهرت الحضارة اليونانية، وبدأ الأدباء والعلماء والمفكرون والشعراء ورجال المسرح بكتابة هذه الأساطير على شكل مسرحيات. كثير منكم سمع عن المسرحيات التي كتبها سوفوكليس، أرسطوفانز، إسخيولوس، وغيرهم.

* ألقى الأستاذ زهير ناجي هذه المحاضرة في المركز الثقافي العربي في كفرسوسة بدمشق بتاريخ 2008/8/19 في إطار برنامج السنة الثالثة من محاضرات جمعية هواة الفلك السورية. قام بكتابة وإعداد المحاضرة الأستاذة أماني نيهاني. يرتبط موضوع المحاضرة بعلم الفلك نظراً لأهمية الأساطير الإغريقية في تسمية الكواكب والكوكبات النجمية في السماء.

كل هذه المسرحيات دونت وعملت وكانت تلقى إقبالاً جماهيرياً واسعاً جداً، ذلك أن هذه الأساطير كانت تعالج قضايا الناس والمجتمعات والأخلاق والمثل. حتى أن اليونان في القرن الخامس قبل الميلاد بنوا مسارح لهذه المسرحيات، ومن هنا نشأ فن المسرح العالمي.

بعد انتهاء حروب الفرنجة وانتصارنا فيها وطردنا لهم في سنة 1302 ميلادي بدأت النهضة في أوروبا في القرن الثالث عشر خاصة في إيطاليا، لأن المهزومين استفادوا من الانتصار ونقلوا العلوم وتحضروا وكسبوا الكثير من الأموال، وتجمع المال خاصة في مدن إيطاليا الجنوبية مثل فينيسيا، البندقية، جنوا، بيزا وغيرها، وكما نعلم فالمال يصنع الحضارة إذا وجد العقل. هذا المال أدى إلى نشوء طبقة من المثقفين والمتعلمين والتجار، يسميها الأوروبيون سكان المدن (البرجوازيون)، نحن نسميها بالطبقة الوسطى، استغلت هذه الطبقة المال لتسيطر على المجتمع التي قامت به لتستلم السلطة.

وبدأ في إيطاليا صراع بين عقليتين: عقلية المثقفين والأغنياء والتجار والراغبين بالتجديد والتطوير (الطبقة البرجوازية)، وبين عقلية الطبقات القديمة (طبقة الإقطاعيين والنبلاء ورجال الكنيسة). واستمر الصراع حتى القرن السابع عشر حيث استطاعت طبقة التجار وأصحاب السفن والمال والبنوك انتزاع السلطة، من خلال ثلاث ثورات:

1- ثورة سكان البلاد الواطئة (هولندا): استولى فيها التجار وأصحاب السفن على المستعمرات، ونهبوا الشعوب، وجمعوا ثروات هائلة.

2- الثورة الإنكليزية: في القرن السابع عشر.

3- الثورة الفرنسية: وهي أعظم هذه الثورات التي أدت إلى الانتصار النهائي للبرجوازية، وانتقال السلطة من النبلاء ورجال الدين إلى طبقة الأغنياء (البرجوازية الوسطى والعليا)، التي تحولت فيما بعد إلى الرأسمالية. يقول رجال التاريخ أن البرجوازية في بداية الأمر كانت تقدمية إنسانية تريد الخير للبشر، لكنها بدأت تتحول إلى استعمارية عندما استولت على السلطة.

الفكرة التي أريد أن أقولها أن البرجوازية عندما بدأت تطور نفسها التجأت إلى تاريخ اليونان والرومان القديم، وجعلت الإنسان هو محور الكون، وبالتالي بدأ الأوروبيون باستخدام هذه الأساطير بالفن والأدب والشعر، فالأساطير اليونانية استخدمت لنهضة الشعوب الأوروبية وتنقيتها بعقلية جديدة. ولا تزال أوروبا حتى الآن تعيش على هذا التراث، فلو ذهبنا إلى أية دولة أوروبية سنجد الأساطير اليونانية موجودة في اللوحات والتماثيل والمنحوتات الرخامية، وبالساحات العامة.

ونشأ علم الأساطير (Mythology) كعلم بحد ذاته عند كل الشعوب الأوروبية منذ قرنين أو أكثر، وكلمة Mythology مؤلفة من قسمين: Mytho- وتعني قصص الشعوب القديمة و-logy وتعني علم. وقد درسوا هذه الأساطير ودرسوا دلالتها ورموزها، حتى أنهم درسوا أساطير الأعداء ليعرفوا كيفية تفكيرهم وليستفيدوا منها بمعرفة عقلية الشعوب. ونحن الآن نسميها أسطورة أي حادث غير حقيقي وغير واقعي وغير ممكن، لكن يجب أن لا ننسى أن هذه الأساطير في تلك الأوقات كانت تاريخاً يؤمن بها الناس، وكانت في بعض الحالات ديناً وتحولت في ذلك الوقت إلى شعر وأدب وفن ومسرح ونحت.

الأساطير اليونانية

الأساطير اليونانية هي أساطير جميلة جداً من الناحية الأدبية، رويت كل أسطورة منها بعشرات الأشكال، كل أديب وشاعر وكاتب كتبها بطريقة المتميزة. وهي دائماً تمثل صراع الإنسان مع القدر. وهي تمثل أحلام وآمال الإنسان، وكل هذه الأساطير ندعوها إما مأساة أو ملهارة. وقسم كبير منها يكتب في مجلة المسرح العالمي التي تصدر بالكويت.

سأذكر لكم الأساطير الموجودة في متاحف سوريا وهذا قد يشجعكم على زيارة المتاحف. هنالك مجموعات في كل من متحف السويداء والشهباء والمعرة والمتحف الوطني في دمشق، ذلك لأن بلادنا خلال تاريخها الطويل استعمرت من قبل اليونان، جاؤوا

مع الاسكندر المقدوني في سنة 332 قبل الميلاد، وبعد وفاته نشأ خلاف بين قواده وتقاتلوا لثلاثة عشر عاماً تقريباً وبقي منهم ثلاثة، فقسموا الإمبراطورية إلى ثلاثة أقسام:

- السلالة الأولى: سلالة بطليموس اللاجيدي (البطالسة) في مصر، آخر ملك من ملوكها هي كليوباترا، وهي آخر ملكة من السلالة المكدونية اليونانية.
- السلالة الثانية: سلالة أنتيغون في بلاد البلقان.
- السلالة الثالثة: سلالة السلوقيون أسسها القائد سيلوقوس، سيطروا على بلاد سوريا والأناضول، وامتدت إمبراطوريتهم من شواطئ المتوسط وحتى الهند، وكانت أكبر إمبراطورية.

هؤلاء اليونان كانوا أغراباً عن البلاد وحاولوا أن يطبعوا هذه البلاد بطابعهم، بطبيعة الحال نجحوا جزئياً في كثير من المدن مثل دمشق وحلب لكنهم لم ينجحوا كلياً، والسبب الأول أن هؤلاء المقدونيين اليونان كانوا أجانب والأجنبي مهما فعل فإنه يفعل نفسه ولا يفعل لغيره، أما السبب الثاني فهو أنهم لم يسيطروا على الريف المستودع البشري الذي لا ينضب. ولكن نشأت طبقة متفقة هائلة جداً من سكان بلادنا، هذه الطبقة المتفقة أبدعت باللغة اليونانية، فلو أن اليونان أعطت فرضاً مئة فيلسوف فإن بلاد سوريا ومصر أعطت 500 فيلسوف وكلهم معروفون منهم الدمشقي والأفامي والحلي والبيروتي والصيدوني، فنحن أسهمنا إسهاماً كبيراً ولم نستطيعوا أن يجعلونا إغريقيين، ولكن أخذنا منهم وأخذوا منا وتم التفاعل، وكما نعلم فإن أقوى الحضارات وأعظمها هي التي يحدث فيها تفاعل. نحن دائماً نقول لا بأس أن تتفاعل الحضارات وأن تتلاقح، وهذا يعطي جمالاً أكثر، لكن نحن ضد نظرية صراع الحضارات، وكلنا نعرف أن الإسلام لا يؤمن بصراع الحضارات وإنما يؤمن بتعاونها، المسيحية نفسها لا تؤمن بصراع الحضارات.

وقد أعطت بلادنا اليونان بالعهد السلوقي (311-64 قبل الميلاد) أكثر مما أعطتنا هي، وما يميز سكان بلادنا هو أنهم أخذوا كثيراً من هذه الأساطير ولكنهم كيفوها لصالحهم. وفيما بعد جاء الرومان إلى هذه البلاد في سنة 64 قبل الميلاد وظلوا حتى 397 ميلادية. كان اليونان والرومان والإغريق عبارة عن حكام أجانب تمركزوا بالمدن، أعطوا وأخذوا. ولكن بلادنا كانت مهد الحضارات. فلماذا أعطت بلاد الشام كثيراً؟؟ لأن كل تجارة العالم كانت خلال أكثر من ألفي عام تمر من بلادنا، أي أن بلادنا كانت غنية.

لقد كان لسكان بلادنا دور كبير في الحضارة، فعلى سبيل المثال في مطلع القرن الثالث رحلت سيدة سورية من عائلة شمس غرام تدعى جوليا دومنا، وهي ابنة ملك حمص، مع زوجها سبتيم سيفير ذي الأصل الكنعاني، وكان قائداً للقوات الرومانية المرابطة في سوريا إلى روما، واستوليا على العرش ونقلها معها الآداب والعلوم والفنون. لذلك كانت النساء الرومانيات يكرهن السوريات، وحتى أن أحد الشعراء الرومان ويدعى جوفينال عبر عن حزنه من غزو حضارتنا لهم فيقول بأحد أشعاره: وا أسفاه إن نهر العاصي يصب في نهر التيبر، لقد جاء هؤلاء السوريون بحضارتهم بشعرهم بأدبهم وعلومهم وغزونا. لنتحدث الآن عن بعض الأساطير الإغريقية التي عرفها سكان سوريا.

أسطورة بروميتيوس

إحدى الأساطير التي نلاحظها في المتحف الوطني موجودة في قاعة حوران، من الأطف وأطراف الأساطير التي رسمها صانعو سجادات الفسيفساء، تقول الأسطورة:

بعد أن قتلت الآلهة القديمة وجاءت آلهة الأولمب ومع وجود اليونان الذي غزوا بلاد الإغريق واستولوا عليها، خطر ببال بروميتيوس أن يصنع الإنسان ويعلمه، فأخذ حفنة من الطين وصنع تمثالاً وطلب من أخيه كرونوس أن يضع بها روحاً. غضب كرونوس والآلهة من طلبه لأن الناس ليس لهم أمان، وعقوبة له طلب أخوه كرونوس من هيفايستوس إله العالم الآخر أن يأخذه

ويصلبه بجبال القوقاز، بحيث يأتي كل يوم في الصباح نسر ليأكل أحشاءه، وفي الليل تنمو أحشائه من جديد، لأنه حسب التفكير اليوناني الآلهة لا تموت، وبقي بروميتيوس على هذه الحال لزم من طويل.

حزنت الإيانيوسات بنات الإله بوسايدون على حال بروميتيوس وأخذوا بالبكاء والتوسل للإله كرونوس ليطلق سراحه، بعد جدال طويل أطلق سراحه ووضع بيديه الخاتم الحديدي علامة الخلود. وبما أن ما تخلقه الآلهة لا يمكن أن يمحي فقد اضطر كرونوس أن يرسل الروح إلى هذا التمثال. ونلاحظ باللوحة الفسيفسائية كيف أن كرونوس أرسل مع رسوله هرمس الروح، وكيف أن هذه النفس لا تريد أن تختلط بالمادة وتراجع إلى الوراء، كلنا نعرف أن الفلسفات عند كل الشعوب تدور حول العلاقة بين الروح والمادة وهذا جوهر الفلسفة عند كل الشعوب ولا يمكن تغييره.



تمثال لبروميتيوس (في الأيسر) ولوحة تظهر النسر وهو يأكل أحشاءه (في اليمين).

أسطورة هرقل

توجد في متحف المعرة سجادة فسيفسائية طولها حوالي 12 متراً تم العثور عليها في سراديب حمص منذ حوالي 10 سنوات، ويبدو أن أهل حمص قد قاموا في القرن الثاني قبل الميلاد برصف هذه السجادة وإخفائها هناك. وتقول هذه السجادة ما يلي: كانت الكميني، وهي سيدة جميلة جداً، متزوجة من شاب يدعى أمفثريون. في أحد الأيام ذهب أمفثريون ليشارك في بعض المهمات خارج مدينته، فجاء الإله زيوس وأخذ شكله ونام في فراش الزوجة فحملت منه بما يعرف باسم هرقل، وهو نصف إله، لأنه عند اليونان عندما تتزوج الآلهة من بعضها تتجب إلهاً، أما إذا تزوج إله بأنسية فإنها تتجب ما يسمى بالبطل، وهرقل هو أحد هؤلاء الأبطال.

في هذه اللوحة نجد هيرا زوجة الإله زيوس وهي تريد أن تقتل الطفل هرقل، فترسل أفعوانين إلى غرفة نومه ليلاً لقتله أثناء نومه مع أخيه. يُسمع صراخ من الغرفة، فيركض الخدم والأم والأب ومعهم المشاعل ويجدون هرقل وهو يمسك الأفعوانين ويخنقهما. ظهر هرقل كبطل منذ أن كان طفلاً وبدأ يقوم بالكثير من الأشياء، على سبيل المثال عندما جاء معلم الموسيقى لينيوس ليعلمه قتله لأنه لم يكن يحب الموسيقى وكان يحب البطولة، ذهب إلى الغابة واصطاد أسداً وسلخ جلده وارتداه، فإذا رأيتم بأي متحف من المتاحف إنساناً يرتدي فروة أسد يكون هذا هرقل. وقد تزوج وقتل أبناءه بالخطأ، حينئذ تم إرساله إلى الملك يورستيس وأخبره الملك أنه حتى ينجيه من عذاب الضمير عليه بالقيام بـ 12 عمل.



تمثال لهرقل يظهر صراعه مع الهيدرا

تظهر اللوحة الفسيفسائية 4 أو 5 أعمال لهرقل، وللأسف فإن السجادة ليست كاملة. في اللوحة الأولى يظهر كيف قتل هرقل الأفعى. في اللوحة الثانية يظهر كيف قتل هرقل الأفعى الأسطورية هيدرا ذات التسعة رؤوس، والتي كانت كلما يقطع لها رأس ينمو مكانه رأسان. في اللوحة الثالثة يظهر كيف نظف إسطبلات الملك أوجياس الذي كان يمتلك 3 آلاف رأس خيل والكثير من الأبقار في يوم واحد، وذلك بتسليط نهري ألفيوس وبنبيوس عليها. في اللوحة الرابعة يظهر كيف جلب تفاحات الهسبيريد، حيث ذهب إلى الغرب وهناك ضرب بعصاه فاصلاً أوروبا عن إفريقيا بمضيق يسمى عند اليونان مضيق هرقل، ونحن نسميه الآن مضيق جبل طارق، بينما سماه الكنعانيون مضيق الإله ملك المدينة (مقارت). وعندها وصل إلى أطلس حامل الكرة الأرضية وطلب منه أن يدلّه على جنة الهسبيريد ليحضر التفاحات الذهبية إلى الملك يورستيسوس، وضك عليه وذهب إلى جنة الهسبيريد واستولى على التفاحات الذهبية.

أسطورة حب أفروديت وأريس

يحتوي متحف شهباء على سجادة فسيفسائية، وفيها أسطورة حب أفروديت وأريس، وهي إحدى الأساطير الإغريقية التي حورها السوريون لعدم رضاهم عن الاحتلال الأجنبي لبلادهم.

أريس (مارس عند اليونان) هو إله الحرب وإله الجمال، وأفروديت هي إلهة الجمال. وهذه الأسطورة هي مأساة عند الإغريق، ولكن الفنان العربي السوري حولها إلى شيء جميل. تقول الأسطورة عند الإغريق إن أفروديت إلهة الجمال تزوجت بلوتو الأعرج إله العالم الآخر وعاشت معه بالعالم الآخر. وفي إحدى المرات ضبط بلوتو زوجته أفروديت وهي تخونه مع أريس، فرمى عليهما شبكة واصطادهما ووضعهما على كتفه وذهب إلى جبل الأولمب (شمال بلاد اليونان وهو مقر الآلهة)، ورمى الشبكة أمام الآلهة فضحكت الآلهة على هذا الفصل وسخرت من العاشقين.

ولكن الفنان السوري جعل من هذا الحب حباً طاهراً لأنه من غير المعقول أن تتزوج فتاة جميلة ولطيفة من رجل عجوز، وهذا ما تظهره اللوحة الفسيفسائية. حيث نلاحظ وجود شهود على أن هذا الحب حب طاهر، بينما تقف الوصيصة خاريس بطرف ومربية أريس بالطرف الآخر، وفي أعلى اللوحة نلاحظ إيروس إله الحب وهو يجمع الرأسين مع بعضهما جاعلاً هذا الحب حباً طاهراً بدلاً من أن يكون حباً دنساً.



لوحة فنية تظهر أفروديت مع أريس.

أسطورة كاسيوبي

إذا كانت ملكة الجمال عند اليونان هي فينوس (أفروديت) فإن السوريين جعلوا من كاسيوبي إلهة الجمال، وقالوا بأنها ابنة بعل. ويوجد جزء من هذه الأسطورة في متحف أفيانيا بشكل لوحة طولها 12 متراً، كما يوجد جزء في متحف تدمر وجزء في المتحف الوطني وجزء في متحف شهباء. وهي تقول إن الإله بوسايدون قرر إقامة مسابقة للجمال وتقدم لها 12 حورية، وكان من المتوقع والمفترض أن تربح فينوس، ولكن تأتي واحدة وتأخذ التاج من أمام الإله بوسايدون وزوجته لتضعه على رأس كاسيوبي أمام دهشة كل ربوات الجمال الموجودة هناك.

أسطورة قدموس

قدموس إله كنعاني قديم، وهي أسطورة رويت بعشرات الأشكال، رسمت ونحتت وجعلت فسيفساء، لكن العرب السوريين حرفوها لصالحهم (حرب إيديولوجية). والقصة كما يلي:

كان لدى ملك حيفا واسمه أجيونور ثلاثة أولاد وابنة صغيرة اسمها عروبة، في يوم من الأيام خرجت هذه الفتاة للتنزه على شاطئ البحر فراها الإله زيوس وأعجب بجمالها، وتمثل على شكل ثور أسود ووقف أمامها. أحبت الفتاة هذا الثور وركبت على ظهره فطار بها وتزوجها بجبل الأولمب وعاش سعيداً معها وأطلق اسمها على قارة أوروبا. حزن الملك أجيونور كثيراً على ابنته وطلب من أولاده أن يبحثوا عنها، ومن يجدها سيكون الملك. توزع الأولاد فذهب أحدهم إلى إفريقيا وذهب الآخر إلى آسيا، في حين انطلق قدموس إلى أثينا (بلاد اليونان) ووصل إلى مدينة طيبة (وكان أهلها يحبون الغرباء بخلاف أهل أثينا) شمال غرب أثينا، وكان منهكاً وجائعاً ممزق الثياب فأكرمه أهل طيبة وأطعموه وألبسوه، ورد قدموس لهم الجميل بأن علمهم الكتابة الأبجدية، وهذا هو مغزى هذه الأسطورة وكيف انتقلت الكتابة الأبجدية من أوغاريت إلى اليونان وكيف تحول أسلوب كتاباتها من المسمارية إلى الرسم، لذلك يقال بأن أول من تعلم الكتابة ببلاد اليونان هم أهل الطيبة.

أسطورة مولد فينوس

فينوس أيضاً ولدت في بلادنا، وهي أسطورة موجودة في متحف السويداء وفي غيره من المتاحف. وهذه اللوحة من أجمل اللوحات التي رسمها الفنانون في بلادنا. تقول هذه الأسطورة إن زبد البحر تزوج من رمال الشاطئ ووضع البذرة في صدفة، هذه الصدفة بقيت على الشاطئ حتى نمت وكبرت، جاء إله النسمة (زفير) وأخذ بدفع الصدفة بالبحر حتى وصلت إلى قبرص، وما أن وصلت إلى قبرص حتى خرجت منها فينوس امرأة كاملة الجمال.

الخاتمة

لو بحثتم عن جذور الأساطير اليونانية فستلاحظون بأن جذورها تعود إما إلى مصر أو بلاد سوريا أو بلاد الرافدين، ولم يقبل الأوربيون أن يعترفوا بهذا خاصة في القرن الماضي، لكن بعض العلماء الأوربيين اعترفوا بهذا. لقد كان أفلاطون يقول في القرن الخامس قبل الميلاد بأن اليونان قد أخذوا الحضارة والفلسفة من مصر.

